

أعلام العرب

١٣٢

عبد الكريم الجيلي

فيلسوف الصوفية

تأليف

يوسف زيدان



المطبعة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٨

اهداء

الى شيخى الأول ،
واستاذى فى سنوات التساؤل
الاستاذ الدكتور
حسن الشرقاوى

مقدمة

للتصوف الإسلامى آفاقه الذوقية الرحبية ، وعالمه العامر بالدلالات الروحية والرؤى النورانية الشفافة . وطريق التصوف طويل ، لا يقطع مراحلها إلا الصادقون فى طريق الله . . أولئك الذين تخلصوا من أسر المشاغل الحسية التى تلهى المرء حيناً ، وتلتهمه أحياناً .

ومن كبار الشخصيات التى تقابلنا فى تاريخ التصوف الإسلامى ، شخصية الصوفى الفيلسوف عبد الكريم الجيلى ، ذلك الرجل الذى جذبته رحيق التصوف منذ حداثته ، وتعلق فى سنواته المبكرة بحكايات الأولياء ، حتى سلك سبيل الولاية الروحية فعاش بين لوعة العاشق ولذة

الواصل ، يترقي من حال إلى حال ، ومن حيرة إلى يقين ، لا يشغله إلاَّ حُب الذات الإلهية ولا يملأ قلبه إلا الرجاء في الارتشاف من كأس المعرفة الإلهية . . . آملاً في قوله تعالى « وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا » .

وبلغ الجليل قمة عالية من قمم الفكر الصوفي ، واصبح على مر الأيام واحداً من معالم هذا الطريق الروحي ، ولكنه على الرغم من ذلك ، لم يجد العناية الكافية من قبل الدارسين ، فظل تراثه في سراديب النسيان ، وظلت مؤلفاته مخطوطة لا تمتد لها أيدي المطالعة . . فاختمى الرجل أو كاد !

* * *

وعلى مدى سنوات طويلة ، قضيتها في صحبة عبد الكريم الجليل ، تكشفت الجوانب الخفية في شخصية هذا الرجل ، فعرفت فيه شاعراً صوفياً لا يقل مكانة عن شاعر الصوفية الأشهر « ابن الفارض » ، ومفكراً يجمع بين الفلسفة والتصوف على نحو لم يتيسر إلاَّ للقلائل من أمثال الشيخ الأكبر « محي الدين بن عربي » وشيخ الإشراق « شهاب الدين السهروردي » .

وهذا الكتاب خلاصة رحلتي مع فيلسوف الصوفية عبد
الكريم الجيلي ، حيث نقدم للقارئ هذه الشخصية الفريدة
في جوانبها المختلفة عسى أن يكون أول عمل يظهر للقراء
عن عبد الكريم الجيلي وافياً بمطلوبه من حيث التعريف بهذا
العلم من أعلام العرب .

يوسف زيدان

القسم الأول

عبد الكريم الجيلي

الفصل الأول

حياته

وَمُذْ كُنْتُ طِفْلاً فَالْمَعَالِي تَطْلُبُنِي
وَتَأْنَفُ نَفْسِي كُلُّ مَا هُوَ وَاضِعٌ
وَلِي هِمَّةٌ كَانَتْ وَهِيَ لَمْ تَزَلْ
عَلَى أَنْ لَهَا فَوْقَ الطَّبَاقِ مَوَاضِعُ

تتفق المصادر على أن اسمه « عبد الكريم بن ابراهيم بن عبد الكريم بن خليفة بن أحمد وكنيته « قطب الدين » . . ويلقبه البعض بالجيلي والبعض بالجيلاني – أو الكيلاني – نسبة إلى جيلان . وجيلان منطقة فارسية تقع جنوب بحر الخرز وشمال جبال البرز ، وتحدها من الشرق طبرستان . يقول ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان : جيلان وموتان ابنا كاشج بن يافت بن نوح ، وجيلان اسم لبلاد كثيرة وراء طبرستان ، ليس فيها مدينة كبيرة وإنما هي قرى في مروج بين الجبال ، وينسب إليها جيلاني وجيلي ، والعجم يسمونها كيلان^(١) .

(١) معجم البلدان ٢/٢٠٨ .

وينتسب كثير من رجال العلم والدين في التاريخ الإسلامي إلى جيلان ، فيلقب الواحد منهم بالجيلي أو الجيلاني . ولكن هناك من المؤرخين من يفرق بين اللقبين على أساس أنه إذا انتسب الشخص إلى البلاد يسمى جيلاني ، وإذا انتسب إلى واحد من أهلها ، يقال له : جيلي^(١) . ويذكر صاحب (كشف الظنون) أن الجيلي من ذرية الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفى ببغداد سنة ٥٦١ هجرية^(٢) .

وما دام شيخنا ينتسب إلى عبد القادر الجيلاني ، وليس إلى جيلان نفسها ، فسوف ندعوه بالجيلي منعاً للخلط بينه وبين الشيخ عبد القادر من ناحية ، ومن ناحية أخرى لأن هذا هو اللقب الذي عُرف به الجيلي بين معاصريه .

* * *

ولد الجيلي في أول محرم سنة ٧٦٧ هجرية (١٣٦٥ ميلادية) كما يقول هو بنفسه في ترجمة ذاتية شعرية تضمنتها قصيدته « النادرات العينية » حيث يقول :

(١) ابن شاکر : فوات الوفيات ٢/٤ .
 (٢) حاجي خليفة : كشف الظنون ٣٤٠/٢

فَفِي أَوَّلِ الشَّهْرِ الْمُحَرَّمِ حُرْمَةً
ظُهُورِي وَبِالسُّعْدِ الْعَطَارِدِ طَالِعُ

لِسْتَيْنِ مِنْ سَبْعِ عَلَى سُبُعْمَائِيَّةِ
مِنْ الْهَجْرَةِ الْغَرَّاءِ سَقْتَنِي الْمَرَضِعُ (١)

وإن كان الجيلي ينتسب إلى (جيلان) الفارسية ، إلاَّ انه عربي المولد ، فقد ولد بقرية من قرى بغداد (٢) . لكن الجيلي يخرج من بلاد العراق في طلبه العلم وهو لم يتعد العشرين من عمره فيتجه إلى الشرق ليزور بلاد فارس ويتعلم اللغة الفارسية التي كتب بها بعد ذلك رسالته الصغيرة « جنة المعارف وغاية المرید والمعارف » ولكن المقام لا يطيب له هناك فيتجه إلى الشرق مرة أخرى حتى يصل إلى بلاد الهند .

ويظل الجيلي بالهند لفترة قصيرة عامرة بمشاهدات غرائب تلك البلاد وعقائد أهلها ، وكانت إقامة الجيلي هناك ببلدة تسمى « كوشى » حيث قابل أصحاب الديانات

(١) الجلي : قصيدة البادرات - آيات ٣٣٣ ، ٣٣٤ .

(٢) يذكر صاحب « معجم البلدان » أن هناك قرية من أعمال بغداد - تحت المدائن - يسمونها « الحيل » وهي بلدة يسكنها أهل جيلان الوافدون على العراق

الأخرى وعرف أسرار عباداتهم ودقائق عقائدهم . لكن الجيلي لم يستقر طويلاً بالهند ، فقد كان تواقاً للعودة إلى بلاد الإسلام الأول ، وكانت الجزيرة العربية تدعوه دعوة روحية ما لبث أن لبى لها ، فاستقرت به يدُ الترحال والسياسة في بلاد اليمن . فيصل الجيلي إلى مدينة « زيد » اليمنية سنة ٧٩٦ هجرية ، مما يعنى أنه كان آنذاك في التاسعة والعشرين من عمره .

وفي مدينة زيد اليمنية يبدأ التحول الروحي في حياة عبد الكريم الجيلي ، ففي تلك المدينة يتعرف الجيلي على شيخ الصوفية شرف الدين بن إسماعيل الجبرق ، وهو الرجل الذي كان له أكبر الأثر في سيرة الجيلي وتصوفه بعد ذلك .

لكن الجيلي ظل على حبه لحياة السفر والسياحة ، ولكنه هذه المرة سوف يخرج بوجدان الصوفى الذى يسعى للقاء محبوبه عز وجل ، فكان إذا خرج للصحراء قاصداً مكة المكرمة ، يشعر بأنه على أعتاب الجناب الإلهى ، وأن كل ما حوله من رمال ونجوم وطيور ما هى فى الحقيقة إلا علامات على الذات الإلهية التى يسعى للتقرب إلى سبحات

جمالها القدسي . أما وسيلة الجليلي إلى مقام القرب ، فهي
التزهد فيما سوى الله ، والافتقار إليه تعالى .. يقول
الجيلي :

جَعَلْتُ إِفْتِقَارِي فِي الْغَرَامِ وَسَيْلَتِي
وَيَا ضَعْفُ مَشْغُوفٌ لَهُ الْفَقْرُ شَافِعُ
وَجِئْتُ إِلَيْهَا رَاغِبًا لَا مَثْوِيَّةً
وَلَكِنْ لَهَا مُنَى إِلَيْهَا أُسَارِعُ
سَكَنْتُ الْفَلَاحُ مُسْتَوْجِشًا مِنْ أَنْيْسِهَا
وَمُسْتَأْنِسًا بِالرَّوْحِشِ وَهِيَ رَوَاتِعُ
أَنْوُحٍ فَيُسْجِجِينِي حَمَامٌ سَوَاجِعُ
وَأَبْكِي فَيُحْكِينِي غُمَامٌ هَوَامِعُ
وَبِي مِنْ مَرِيضِ الْجَفْنِ سَقَمٌ مُبْرِحُ
وَلِي مِنْ عَصِيٍّ الْقَلْبِ دَمْعٌ مَطَاوِعُ
وَقَدْ قَيْدَتْ بِالنَّجْمِ أَهْدَابُ مَقَلَّتِي
كَمَا أَطْلَقْتُ عَنْ قَيْدِهِنَّ الْمَدَامِعُ^(١)

(١) الجليلي : النادرات العينية .

ويصل الجيلي إلى مكة في أواخر سنة ٧٩٩ هجرية ،
وهناك يلتقى بأهل التصوف المجاورين حول بيت الله
الحرام . ويحكى لنا الجيلي أن الصوفية بمكة وقتها ، اجتمعوا
للكلام عن اسم الله الأعظم الذي لا يعرفه إلا خاصة أولياء
الله ، فاتفقوا فيما بينهم على أن اسمه تعالى الأعظم هو اسمه
تعالى « هو » . . ولكن الجيلي شعر في قرارة نفسه ، وبحسه
الصوفي المرهف أن « هو » اسم شريف للذات الإلهية ،
ولكنه ليس اسم الله الأعظم واحتج الجيلي بأن « هو » إشارة
إلى « الغائب » ولكنه يرى الله بعين قلبه « حاضراً في كل
ما حوله ! (١) .

ويواصل الجيلي سياحته الصوفية في بلاد الله ، متفرداً في
وحدته ، غرباً في الديار التي يحل بها حتى إذا عُرف في تلك
الديار أرتحل عنها إلى مكان آخر لا يشغله فيه أحد عن
مجاهداته الروحية وجهوده العلمية التي تنوعت حتى شملت
علوم اللغة وعلوم القرآن والديانات القديمة التي بدأ يناقشها
في مؤلفاته ، وهكذا كانت سياحة الجيلي معيناً له على تحصيل

(١) الجيلي : الانسان الكامل ١/٥٨ .

العلوم المتنوعة من جهة ، وكانت من جهة أخرى : رحلة روحية في عالم الأنوار . . وفي رحلة كهذه ، يزداد الشوق مع كل خطوة ، ولا يبقى مطلباً يؤمل غير « الذات الألهية » وذلك ما عبر عنه الجليل في شعره حين قال :

سَقَانِي الْهَوَى كَأْسَ الْغَرَامِ وَلَمْ يَكُنْ
عَلَى سَاحَةِ الْوَجْدَانِ بِالْكَرْمِ مَانِعُ
فَقَاطَعْتُ نِدْمَانِي وَوَأَصَلْتُ لَوْعَتِي
وَهَاجَرْتُ أَوْطَانِي فَبَانَتْ مَرَابِعُ
تَرَكْتُ لَهَا الْأَسْبَابَ شُغْلًا بِحُبِّهَا
وَوَجَدْتُ بِنَارٍ قَدْ حَوَّتْهَا الْأَضَالِعُ^(١)

ويصل الجليل إلى القاهرة ، فيرى الأزهر الشريف ويجتمع بعلمائه ، وكان ذلك في سنة ٨٠٣ هجرية ، حيث انتهى في القاهرة من تأليف كتابه « غنية أرباب السماع » الذي جمع فيه بين موضوعات التصوف والموضوعات البلاغية .

(١) الجليل : النادر العينية .

لكن الجيل لا يزال على شوقه الدائم الذي لا يهدأ ،
فنراه في نفس السنة بمدينة « غزة » في طريقته إلى ساحل
فلسطين . . وهناك يشتد به الحنين إلى شيخه شرف الدين
الجبرق ، وكأنه يشعر بقرب وفاة أستاذه ، فيصل إلى زيد
اليمن قبل وفاة الجبرق بعام واحد ، أى في سنة ٨٠٥
هجرية . وفي زيد اليمن^(١) يجد الجيل حوله مريد شيخه
الجبرق ، وقد كونوا مدرسة صوفية عظيمة مقرها مسجد
الجبرق بزبيد ، ويلبث الجيل هناك حيناً من الدهر ينتهي فيه
من كتابه الشهير « الإنسان الكامل » وهو الكتاب الذي
امت عليه شهرة الجيل كفيلسوف صوفي .

وتحدثنا المصادر التاريخية أن الجيل تنقل بعد ذلك بين
مدن اليمن ، فزار « صنعاء » وبلدة « الإنفة » وغيرها من
البلدان . . ولم يكف عن سياحاته التي تذكرنا بهذه الأبيات
الشعرية التي انشدها الصوفي المسلم أبو بكر الشبلي والتي
يقول فيها :

(١) زيد اسم واد في الجانب الغربي من بلاد اليمن ، وبه مدينة كان يقال لها « الحصيب » ثم غلب عليها
اسم الوادي فلا تعرف إلا به ، وهي مدينة مشهورة بين مدن اليمن يتسبب إليها جمع كبير من العلماء
(معجم البلدان ١٣١/٣) .